

حول جدل في الجامعة

للأستاذ عبد الفتاح بدوي

—»»»»»—

نشر الأستاذ « المباس » مقالا في « الرسالة » عنوانه « جدل في الجامعة » وموضوعه رسالة قدمت في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول لنيل درجة الدكتوراه .

ونشر الأستاذ « محمد خلف الله » مقالا بعده ينفي فيه أن يكون الأستاذ « أحمد أمين » قد غاب الرسالة لضعف في منهجها أو لإنكار ما فيها من حقائق علمية ويقول : إن كل ما صنعه الأستاذ أحمد أمين أنه أفت ذهن الجامعة إلى أن مناقشة الرسالة قد تثير ضجيجا لما فيها من أفكار وآراء .

وليس يعطينا ضعف منهج الرسالة فليس الناس ولا أهل العلم خاصة قوامين بالقسط على الرسائل التي تقدم في الجامعة فذلك شأن المتحدين من دون الناس جميعا

ولكن الذي لنا وللاملاء خاصة هو القيام على الحقائق العلمية وعلى الحقائق الدينية نفى عنهما الخبث وندافع عنهما كل من يحاول عليهما المدران .

كل بلد أن يقوموا بقراءتهم وأن يجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم :

فيقام للفقراء بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ، وبالألباس للشتاء ، والصيف يمثل ذلك ، ويمكن بكنهم من المطر والصيف والشمس وعبون المارة (١) .

بل لقد ذهب أبو محمد بن حزم إلى رأى لا نحسبه معروفا جيدا لجمهرة المسلمين قال : « ولا يحمل المسلم اضطرا أن يأكل ميتة أولم خنزير ، وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذي ، لأن فرضا على صاحب الطعام إطعام الجائع ، فإذا كان ذلك كذلك ، فليس بمضطر إلى البيت ولا إلى لحم الخنزير » (٢) .

ومعنى أبو محمد فيقول : « وله — يقصد اللحم المضطر —

واقد دلنا الأستاذ « خلف الله » بمقاله على أن في الرسالة التي تقدم بها إلى الجامعة أحداثا خطيرة في العلم وفي الدين ، ودعاني مقاله هذا إلى البحث عن تقرير الأستاذ أحمد أمين وإلى البحث عن غير ذلك التقرير ، وما دمنا نملك هذا المقال فإننا نملك بابا وسيما من المناقشة والحساب في مسائل علمية ودينية لها أكبر الخطر ويترتب عليها أعظم النتائج العلمية والأدبية والاجتماعية والقانونية إلى أن نحصل على أشياء أخر غير المقال .

يقول الأستاذ « خلف الله » : ومن المعروف دينيا ألا نستنتج من نص قرآني أمرا لم يقصد إليه القرآن ... وهذه الدعوى هكذا تهجم عارم على العلم وعلى القرآن جميعا ، ودلالة صريحة على أن من يدعى هذه الدعوى يستبيح للناس أن يقولوا عنه أنه لا يعرف شيئا من النطق ؛ والنطق ميزان العقول ، وهو لا يعرف قواعد اللغة ، ولا يتكلم بكلام الناس ، ولا يصح أن تكون له رسالة بتقدم بها إلى الجامعة أو إلى سواها لأنه ليس من أهل العلم في شيء .

ليس القرآن الكريم كلاما له الدلالات المنطقية الثلاث المطابقة والتضمنية والالتزامية التي لكل كلام سواء في ذلك كل أنواع الكلام ؟ فإذا قال القرآن الكريم : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين » ألا تفهم منه أن هناك

أن يقاتل عن ذلك ، فإن قتل فملى قاتله القود ، وإن قتل المانع ، نال لعنة الله لأنه لأنه منع حقاً ، وهو طائفة باغية ، قال تعالى : « فإن بفت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبنى حتى تقيء إلى أمرك الله » ومانع الحق باغ على أخيه الذي له الحق ، وبهذا قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانع الزكاة ، وبالله تعالى التوفيق » (١) .

وبعد ، فهل يسع النصف أن لا يقرر أن المذاهب والشروط الاجتماعية الحديثة مع ما في بعضها من آراء تستحق التقدير ، وتحمل على بعض الأمل في أن تغلب لأدواء الفقر ، لا تنسأ إلى المبادئ الإسلامية في دقتها وشوئها وعملها المنظم على موازنة الثروات ، والتقريب بين الطبقات ، وإقامة التسكامل الاجتماعي ، واحترام الإنسانية ، وتمكين الأمة من حفظ قوتها وشوئها .

ليعب الصغير

(١) المحلى لابن حزم ج ٦ ص ١٥٦

(٢) المصدر نفسه

عليه السلام وفيها اسم يوسف والكان الذي كانت فيه القصة ولا يذكر زمانها ؛ وقد لا يهتم بالكان فيذكر قصة لوط فيبين اسمه وأنه معاصر لإبراهيم ويذكر الحوادث ولا يذكر المكان ؛ وقد لا يهتم القرآن الكريم بالتفاصيل فيذكر قصة يونس عليه السلام وأنه « سام فكان من الدحضين » دون أن يدل على تفاصيل المساهمة ولا على نوعها ولا على المساهمين ، ذلك كله لأن القرآن يخالف المؤرخ فالمؤرخ قد ينتج ليستنتج ، أما القرآن فهو منزل بالواقع ، والحكم التاريخي فيه حكم العالم بالحقيقة فهو لا يستنتج ولكن يقرر الواقع ويذكر من الأسماء والأزمان والأمكنة والأحداث ما يعيننا على فهم ذلك الحكم التاريخي وتلقيه بالقبول ، ويتفق التاريخ والقرآن في أن كلا منهما يرتب الحكم التاريخي على المقدمات التي يذكرها وإن كانا يختلفان في طريقة ذلك الترتيب ، فالمؤرخ يرتب المقدمات ترتيباً ظنياً خاضعاً لآلاف الفروض وأنواع الحدس والتخمين ، فإذا ذكر المؤرخ أسباب سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية كان كل سبب مما يذكر موضع نقاش طويل في جميع مراحلها ؛ أما القرآن الكريم فيرتب المقدمات ترتيباً يقينياً لا شك فيه ؛ فإذا قرأنا قوله تعالى « ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنهم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنمون » رأينا المقدمات يقينية الوقوع والحكم الذي ترتب عليها هو عين اليقين ؛ فالقرآن مصدر من مصادر التاريخ وليس كتاباً من التاريخ والفرق بينهما واضح كل الوضوح ، وليس في المسلمين من يقول بغير هذا .

ويقول الأستاذ (خلف الله) : « على أن هذه المسألة قديمة ومن أجلها عد الأصوليون القصص القرآني من التشابه ولقد نتج عن ذلك طريقتان . طريقة السلف وطريقة الخلف أما الأولون فيذهبون إلى أن كل ما ورد في القصص القرآني من أحداث قد وقع . وأما الآخرون فلا يلتزمون هذا وعلى طريقةهم جرى الأستاذ الامام ... »

وهذا الذي يقوله الأستاذ خلف الله جراءة أخرى على الأصوليين وتقول مقترى على الإمام محمد عبده . فلسنا نعرف أحداً من الأصوليين ولا أحداً من المسلمين يعتبر القصص القرآني متشابهاً ولا نعرف أحداً من الأصوليين ولا من المسلمين لا يقول بأن ما ورد في القرآن من القصص إنما هو أحداث وقعت وحوادث

بلد اسم « بكة » وأن في هذا البلد بيتاً ، وأنه وضع للناس ، ثم نفهم الأمر الديني فوق هذا وهو أن هذا البيت مبارك وهدى للمالين ؟ أليس لنا ذلك ونحن لا نستطيع أن نفهم هذا الأمر الديني إلا مع فهم تلك الدلالات ؟ بل أجمع العلماء على أن للقرآن الكريم فوق هذه الدلالات الثلاث التي تجمع عليها عقول البشر لكل كلام دلالة أخرى سامية هي دلالة الفجوى التي يكون مثلها للنثر الفني أو الشعر البليغ ، واجمعوا على أن هذه الدلالة صرية قطعا وإن اختلفوا في أنه هل تقوم على هذه الدلالة أحكام شرعية أم لا ؛ إننا إذا حرمتنا القرآن الكريم دلالاته الالتزامية وهي التي تستنتج من الكلام فقد حرمتنا أخص المزايا العقلية لكل كلام وليس يملك هذا الحرمان أحد ، إنما يدينه من حرم قواعد العقل وخرج من ميدان التفكير ، وإذا كانت الحقائق العلمية التي بنى عليها الأستاذ « خلف الله » رسالته من مثل مقاله هذا فويل للعلم رويل للعلماء .

ويدعى الأستاذ « خلف الله » أن الأستاذ « محمد عبده » قد قال بهذا القول فأى قول هو هذا الذي قال به الأستاذ الإمام ؟ أن كلام الأستاذ محمد عبده مثل كلام كل العلماء أن القرآن الكريم ليس كتاباً أنزل للتأريخ وضبط الوقائع وترتيب الحوادث التاريخية بعضها على بعض ولكنه بالاجماع يستخدم التاريخ ويقص من هذا التاريخ حقائق واقعة ثابتة مرتبة بعضها على بعض ترتيباً لا استنتاج فيه كما يستنتج المؤرخ ولكن ترتيب الحق والواقع وينزل بذلك الواقع المرتب ترتيب الحقائق لهداية الناس وإرشادهم إلى الخير والفلاح .

فالقرآن يخالف كتب التاريخ في أمور ويوافقها في أمور ؛ فالمؤرخ قد يرى من واجبه أن يتتبع تفاصيل الواقعة : من الأسماء والزمان والمكان والأحداث وتفاصيلها لأن هذا كله قد بينته على استنتاج الحكم التاريخي الذي يحكم به على الواقعة أو بشيخ به منهم المواطف الكثيرة المختلفة من قراءة التاريخي ؛ أما القرآن الكريم فقد لا يعنيه بعض هذا لأنه لا يستنتج الأحكام التاريخيه ولسكنه الحكم القيم فيها ؛ فقد لا تمنيه الأسماء مثلاً فيقول : « قتل أصحاب الأخدود » لأن الدبرة التي تترتب على القصة أي الحكم التاريخي لا يتوقف على أسماء هؤلاء الناس ، وليس له بأسمائهم صلة ، وقد لا يهتم القرآن الكريم بالزمان فيذكر قصة « يوسف »

هي خلاصة الحقيقة التي وقعت في سوانف الأزمان يسوقها القرآن عبرة وهدى للعالمين ؛ وليلدنا الأستاذ على أصول لا يقول بهذا أرمي مسلم لا يقول بهذا

وكلام الأستاذ خلف الله افتراء على الأستاذ الامام يكذبه قول الإمام ومنهجه الذي اختطه لنفسه في صراحة لا شية فيها ولا اختلاط ؛ ونورد هنا نص عبارة المنار وهي على أتم وضوح ليتبين للناس مقدار تهجم الأستاذ خلف الله على العلم وعلى رجال العلم ولينبئ له كيف أراد أن يلبس على الناس بأقواله في مقاله ويقول ما ليس بحق .

قال في المنار عند تفسير قوله تعالى « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسمك الدعاء » : تهديد للقصة ومذهب الخلف والسلف في التشابهات : أن أمر الخلقة وكيفية التكوين من الشئون الإلهية التي يمز الوقوف عليها كما هي وقد قص الله علينا في هذه الآيات خبر النشأة الإنسانية على نحو ما يؤثر عن أهل الكتاب من قبلنا ومثل لنا المنار في صور محسوسة وأبرز لنا الحكم والأسرار بأسلوب المناظرة والحوار كما هي سنته في مناظرة الخلق وبيان الحق وقد ذهب الأستاذ إلى أن هذه الآيات من التشابهات التي لا يمكن حملها على ظاهرها لأنها بحسب قانون التخاطب إما استشارة وذلك محال على الله تعالى وإما إخبار منه سبحانه بالملائكة واعتراض منهم ومحاولة وجدال وذلك لا يليق بالله تعالى أيضاً ولا بملائكته ولا بجماع ما جاء به الدين من وصف الملائكة بكونهم لا يمضون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وقد أورد الأستاذ (يعني محمد عبده) مقدمة تهديدية أفهم القصة فقال ، ما مثاله : أجمت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزّه عن مشابهة المخلوقات وقد قام البرهان العقلي والبرهان النقل على هذه العقيدة فكانت هي الأصل المحكم في الاعتقاد الذي يجب أن يرد إليه غيره وهو التنزيه فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء يناقض ظاهره التنزيه فللمسلمين فيه طريقتان أحدهما طريقة السلف وهي التنزيه الذي أيد العقل فيه . فنقل كقولته تعالى ليس كمثل شيء وقوله عز وجل سبحانه وبك رب العزة عما يصفون وتقويض الأمر إلى الله تعالى في فهم حقيقة ذلك مع العلم بأن الله يعلمنا بضمون كلامه ما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا

وبأيننا في ذلك بما يقرب المعاني من عقولنا وبصورها لمخيلاتنا والثانية طريقة الخلف وهي التأويل يقولون : إن قواعد الدين الإسلامي وضعت على أساس العقل فلا يخرج شيء منها عن العقول فإذا جزم العقل بشيء ورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ولا بد من معنى موافق يحمل عليه فينبغي طلبه بالتأويل : قال الأستاذ (محمد عبده) وأنا على طريقة السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته وعالم الغيب وأما تسير في فهم الآيات على كلتا الطريقتين لأنه لا بد للكلام من فائدة يحمل عليها لأن الله عز وجل لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى

قال صاحب المنار : وأقول أنا مؤلف هذا التفسير . إنني والله الحمد على طريقة السلف وهدىهم ، عليها أحياء وعليها أموات إن شاء الله تعالى .

فالأستاذ الامام لم يقل إن القصص من التشابه ولم يقل بذلك مسلم قبله أو بعده والأستاذ الامام يقول : إن الآيات في قصة الخليقة في الأرض من التشابه وفسر ذلك التشابه بأنها لا تحمل على ظاهرها وفسر ذلك الظاهر الذي لا تحمل عليه بأن فيها حواراً وجدلاً بين الله تعالى والملائكة والجدل والحوار على ظاهرها لا يليقان بالله تعالى ولا بالملائكة فيجب تأويل ذلك الجدل والحوار وحملهما على (خلاف مقتضى الظاهر) وبين التأويل الذي يراه لهذا الحوار ولهذا الجدل في ص ٢٥٤ من تفسير المنار لنفس هذه الآيات فقال : وأما الفائدة فيما وراء البحث في حقيقة الملائكة وكيفية الخطاب بينهم وبين الله تعالى فهي من وجوه أحدها أن الله تعالى في عظمتة وجلاله يرضى لمبيده أن يسألوه عن حكمته في منزه الخ ثانياً إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمته ما يخفى على الملائكة فنحن أولى بأن نخفى علينا ثالثاً أن الله تعالى هدى الملائكة في حيرتهم بعد الإرشاد إلى الخوض والتسليم رابعاً تلمية النبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب الناس الخ فأين ما ادعاه الأستاذ خلف الله على الأصوليين وعلى الامام . إن هذا إلا اختلاق . حسب الرسالة اليوم هذا فإن الحساب بيننا وبين الأستاذ خلف سيعلول .

عبد الفلاح بروي
الدرس في كلية الشريعة